

## الحرب والسلام في المسيحية

الأب أوغسطين دُوييه لاثور اليوعي<sup>٥</sup>

في عالم يسوده العنف بوجوده مختلفة، يبدو أن المسألة التي سنعالجها تلبّي حاجةً إلى التذكير تزداد إلحاحًا يومًا بعد يوم. إذ إن قضية الحرب والسلام هي، بوجه خاص، موضوع لا تستطيع الكنيسة والمسيحيون أن يتجنّبوه. والأب الأقدس قد خصّص لهذا الموضوع يومًا كاملًا، وهو رأس السنة، منذ عشرات السنين. ولقد تمّ اختيار اليوم الأوّل من السنة لتتويجه بأهميّة المسألة، وللإشارة إلى اهتمام رئيس الكنيسة.

وفي بدء العام ١٩٩٩ هذا، بعث يوحنا بولس الثاني برسالة إلى العالم كلّه، استلّها بهذه الكلمات: «على عتبة سنة جديدة، وهي الأخيرة قبل اليوبيل الكبير، أريد أن أتوقّف مرّة أخرى على هذا الموضوع الذي هو بمسئله الأهميّة (. . .)، أعني احترام حقوق الإنسان، الذي يمكن السلام من الازدهار». فالسلام، يلخص إذاً باحترام حقوق الإنسان، وبالتالي بنظرة إلى الإنسان. وقد واصل البابا كلامه، قال: «إنّ الدفاع عن شعوليّة حقوق الإنسان وعدم انقساميتها هو أمر جوهريّ لبناء مجتمع مسالم ولتنمية أفراد وشعوب وأمم على وجه تام». فالسلام مرتبط باحترام حقوق الإنسان، ولذلك فإنّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي أقرته منظمة

---

(٥) لاهوتيّ. درّس في عدد من الجامعات بلبنان. عميد سابق لكلية اللاهوت في جامعة القديس يوسف، بيروت.

الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨، والذي أذيع بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، قد اعتُبر الاتفاقية التي من شأنها أن تضع حدًا لكلّ حرب وكل عنف بين الأمم. لا يخفى على أحد ما كان مصير هذه الاتفاقية، بالرغم من جميع الجهود التي أمكن بذلها، إذ إنّ الحرب تبقى حقيقة ثابتة في العالم. وإذا صحّ أنّ حربًا عالمية ثالثة قد أمكن تفاديها حتى الآن، فإنّ نزاعات أخرى قد اندلعت في العالم، كما لو استحال على البشرية أن تتجسّبا، وكما لو كانت البشرية في حاجة إليها. ونحن أيضًا في لبنان قد اختبرناها قبل قليل.

أنترح أن نبحث أولًا في طبيعة الحرب، كما تراها المسيحية، نبحث بعد ذلك في السلام، في السلام الحقيقي كما يراه الإيمان المسيحي.

## أولًا - الحرب

لا شك في أنّ الكنيسة أرادت، في السنين الأخيرة هذه، أن تكون عامل سلام. فكلّما كانت الحرب والعنف يزدادان في العالم، أرادت الكنيسة أن تُسمع رسالتها في السلام صدّى لنشيد الملائكة حين خاطبوا الرعاة في المذود: «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام للناس أهل رضاه!». أراد الله أن تكون رسالة وحيه رسالة سلام قبل كلّ شيء، لأنّه أراد أن يحمل السلام إلى العالم، علمًا بأنّ اسم الميخ الذي أرسله هو «أمير السلام».

والحال أنّ أمير السلام هذا، الذي أتى ليحمل السلام إلى البشرية، هو أيضًا ذلك الذي كان يقول: «... ما جئت لأحمل سلامًا، بل سيفًا: جئت لأفرق بين المرء وأبيه، والبنت وأمتها... فيكون أعداء الإنسان أهل بيته» (متى ١٠/٣٤-٣٦). واكبت حياته كلّها مشاهد عنف ومعارضة. ومنذ نعومة إظفاره، لاحقه عظماء الكهنة والكتبة، ولا سيّما هيرودس الملك الذي قَتَلَ الأطفال الذين دون الستين. وطوال إعلانه البشري، كان

ضحية تهجم الكعبة والنريسين، لأنه ندد بريانهم وتفسيرهم الكتب  
المقدمة بانحياز. وعلى أثر إحياء لعازر، صم رؤساء الشعب على  
إعدامه: «... أنتم لا تُدركون شيئاً، ولا تفتنون أنه خير لكم أن يموت  
رجل واحد عن الشعب ولا تبك الأمة بأسرها...». قال قيافا هذا  
الكلام، «لأنه كان عظيم الكعبة في هذه السنة، فتباً أن يسوع سيموت عن  
الأمة، ولا عن الأمة وحسب، بل ليجمع أيضاً شمل أبناء الله المشين»  
(يو ١١/٤٩-٥٢). فهكذا كان أمير السلام هذا ضحية ومات ميتة العبد،  
بعد أن حكم عليه بيلاطس بالموت.

إن مجيء ابن الله إلى هذا العالم ليحمل إليه السلام كان معارضةً  
وصراعاً دائماً لأناس كانوا يرفضون أولاً الحقيقة التي يعرضها الله عليهم،  
وكانوا معلولين بغضاً بالأحرى، بغضاً شبه تام من قبل الرؤساء، يظهر في  
أعمالهم وفي جميع مجالات حياتهم. وكانت البشرية عاجزة عن الرد إلا  
بالبغض على ذلك الذي لم يكن سوى محبة. وعلى تلك الوصية الوحيدة  
«أحب الرب إليك من كل قلبك وكل قوتك، والترب كفسك»، كانت  
البشرية عاجزة عن الرد إلا ببذا الموقف «أبغض الرب إليك من كل قوتك  
وأبغض قريبك. لا تغفر له، بل اظهر له تفوقك».

في نظري، هذا هو مخطط الحرب وجوهرها، فهي تظهر بمظهر  
معارضة، بمظهر حشد على الأمم، حتى إثناء الآخر. في الواقع، يمكن  
تجميع المواقف المسيحية من استخدام الأسلحة، مع التعرض لخطر  
الإفراط في التسيط، إلى ثلاث فئات: (١)

## ١ - الموقف السلمي

لا شك في أن المسيحيين الأولين سلموا بشرية الحرب التي تلجأ  
إليها السلطة السياسية. فقد كتب القديس بولس: «فإنها في خلة الله في  
ميل خيرك. ولكن خف إذا فعلت الشر، فإنها لم تتقصد السيف عبثاً،

(١) Cf. Christian MELLON, *Chrétiens devant la guerre et la paix*, Paris, Le  
Centurion, 1984, pp. 90 sq.

لأنها في خدمة الله كما تنتم لغضبه من فاعل الشر. ولذلك لا بد من الخضوع، لا خوفاً من الغضب فقط، بل مراعاةً للضمير» (روم ١٣/٤-٥). لكن المتعود هنا هو السلعة السياسية التي كانت وثيقة. أما المسيحيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم غرباء عن هذا العالم، فإنهم يعيشون في انتظار عودة المسيح، وليسوا من مواطني المدينة الأرضية. فكان سرايم الوحيد هو الصراع الروحي الموجه إلى الأوثان وإلى الشياطين. وأسلحتهم هي أسلحة الروح القدس، قوة الله نفسها. كتب القديس بسلطيس، في حوالي السنة ١٥٠: «ونحن الذين كانوا في ما مضى يقتلون بعضهم بعضاً، لا نكتفي بأن نكتف عن محاربة أعدائنا، بل بدّل أن نكذب أو أن نخدع الذين يستجوبوننا، نموت شاهدين للمسيح»<sup>(٢)</sup>. فلا يجوز للمسيحيين إذاً أن يشاركوا في الحرب، لا بل لا يجوز لهم أن يدافعوا عن أنفسهم. فإنّ دفاعهم الوحيد هو إيمانهم الذي يوصلهم إلى الاستشهاد. ويجب، حتى على جنود الإمبراطورية الرومانية الذين أصبحوا مسيحيين، أن يمتنعوا عن القتل، وبالتالي أن يتخلّوا نهائياً عن مهتهم العسكرية. وهذا كان تفكير أوريجانيس في القرن الثالث الميلادي: «لا يجوز للمسيحي أن يسلّ السيف للمحاربة، أو للتمسك بحقوقه، أو لأي سبب آخر، لأنّ وصية الإنجيل لا تحتمل أيّ استثناء». فالسلاح الوحيد للدفاع عن القضايا المعهنة هو في نظر المسيحي، سلاح الصلاة<sup>(٣)</sup>.

وفي وقت لاحق، حين أصبح هذا التحريم أمراً نبيئاً، ثمّ أهمل، اقتصر على الكهنة والرهبان، إذ إن العنف المادي والحرب لم يزالا غير لائقين بالمتقربين من الإله الحي، بخدام المسيح الذي كان هو نفسه ضحية عنف البشر، وعاتب بطرس في جسماني على ضرب خادم عظيم الكهنة، قائلاً له: «إغمِذ سيفك، فكلّ من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك» (متى ٥٢/٢٦).

(٢) الدفاع الأول، ٣٩، ١ و٣.

(٣) C. MELLON, *ibid.*, p. 95.

## ٢ - الحرب المقدسة أو الجهاد

هل يجوز لله نفسه أن يدعو المزمين به إلى محاربة الكافرين؟ إن مفهوم الحرب المقدسة أو الجهاد يذكر مباشرة بمفهوم «الحملة الصليبية»: فإن اللجوء إلى السلاح لا يبقى محرماً، بل يوصى به المسيحيون. كان مغاليل إلى البلدان المسيحية لن تحترق قبر المسيح بحرف ذلك الزمن إنشاء عدة رهبانيات للدفاع عن هيكل أورشليم (الداوتون)، أو لحماية الحجّاج من كل اعتداء. ذلك بأن الحرب كانت تُشنّ باسم الله نفسه.

وفي القرن السادس عشر، شهدت أوروبا الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت، هذه المرة باسم الحقيقة، باسم صفاء الإيمان وحقيقته. فكان كل خطاب في الحرب المقدسة، أدبيّاً كان أم علمانياً، (رنعي بكلمة علماني كل عفاندية «مطلقة» تكون بمثابة معبود جديد، كالثورة والعرق، إلخ) يعيل إلى وصف الحرب، لا كشر لا بد منه، بل كخير إيجابيّ.

كل ذلك غير مقبول من وجهة نظر مسيحية، فهو جنون. هذا هو موقف الكنيسة الحالي، ولا سيما بعد ظيور عصر «الأنوار» وعلى أثر قيام الثورة الفرنسية.

## ٣ - الدفاع الشرعيّ أو «الحرب العادلة»

يفترض هذا الوجه، إن هناك تقديرًا لواقع ملموس. إذ إنّ التضيّة العادلة تقوم مبدئيّاً على إجحاف جسيم لا يتّسم منه أو لا يعوّض عنه إلا بالعنف. هذا كان تفكير سواريز (Suarez) في القرن السادس عشر. بحيث ارتكز تفكير الكنيسة الأخلاقيّ مدّة طويلة على هذا التحديد. لكنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني طرح المسألة قبل قليل من منظار مختلف، فقد سلّم بإمكانية الدفاع المشروع: «ما دام خطر الحرب قائماً، وما دام وجود سلطة دولية مؤهلة يكون في تصرفها قوى كافية معدوماً، لا يمكن أن نرفض للحكومات، بعد استفاد جميع إمكانيّات التسوية السلمية، حقّ الدفاع المشروع. فمن واجب رؤساء الدول والمشاركين في مسؤوليات

القضايا العامة أن يَتمسوا المحافظة على الشعوب التي هم مسؤولون عنها، من دون أن يعالجوا بثقل روية مسائل جذية إلى حد بعيد. لكن إعلان الحرب للدفاع عن الشعوب هو أمر، والسيطرة على أمر آخر هو أمر آخر (الكنيسة في عالم اليوم، ٧٩، ٢٤). فالحرب العادية هي مشروع إذا في بعض الظروف. لكن المجمع الفاتيكاني الثاني يتابع فيقول: «علينا أن نؤمن بكل قوتنا ذلك اليوم الذي تصبح فيه كل حرب، بإجماع الشعوب، محرمة على الإطلاق» (الكنيسة في عالم اليوم، ٢٨، ١).

وفي الرسالة العامة السلام في الأرض، جعل البابا يوحنا الثالث والعشرون، بين علامات الأزمنة، تطور الاقتناع بأن النزاعات المحتملة بين الشعوب لا يجوز أن تُسوى باللجوء إلى السلاح، بل بالمفاوضات. فبناك، بالرغم من أنواع الإخفاق، أحداث كثيرة، وحتى قرية العبد، تشيد على أن المفاوضات النزبية المستمرة التي تراعي حقوق الأطراف المتواجبة وتطاعتها، قد تؤدي إلى قرار سلمي لأشد الأوضاع تعقيداً. «بالرغم من الحرب، يبقى طريق السلام مفتوحاً لأصحاب الإرادة الحسنة. نعلم أن السلام يتصل في قلوب الذين ينتحون لله. إن التذكر بالحرب العالمية الثانية وبالمسافة التي قطعت في العقود التابعة يذكّر المسيحيين حتماً بأنه لا بد أن يكون ليم قلب جديد، قادر على احترام الإنسان، وعلى تعزيز كرامات الأصيل»<sup>(٤)</sup>.

## ثانياً - السلام

### ١ - المجمع الفاتيكاني الثاني

قبل قليل قرأنا في نصّ كته يوحنا الثالث والعشرون هذه العبارة: «بالرغم من الحرب، يبقى طريق السلام مفتوحاً لأصحاب الإرادة الحسنة. نعلم أن السلام يتصل في قلوب الذين ينتحون لله». من هنا يمكننا أن نشعر بأن السلام ليس غائباً عن الموضوع الذي بحثنا فيه. ليس السلام

cf. *Documentation Catholique*, 1995, p. 537. (٤)

غياب حرب محضًا، وهو لا ينتصر على تأمين توازن القوى المتواجبة، ولا يصدر عن ميطرة استبدادية، بل بصواب بعرفه أشعيا فيقول إنه: «عَمَل يَر». «إنه لعمرة نظام محضور في المجتمع البشري ولا بد أن يحقّقه أناس لا يشغفون عن التخلُّع إلى عدائته أكمل. نفع أن مصلحة الجنس البشري العامة تُوجَّه في واقعها الأساسي الشريعة الأزليّة بما فيها من متطلّبات عمليّة، فإنّها تتحقّق لتعيّرات دائمة في سياق الزمن، بحيث إنّ السلام ليس أمرًا مكتسبًا مرّة واحدة، بل يحتاج إلى بناء دائم. وبما أنّ الإرادة البشريّة هي ضعيفة لأنّ الخطيئة تال منها، فإنّ حلول السلام يقتضي من كلّ إنسان مراقبة أهوانه باستمرار، إلى جانب سير السلطة الشرعيّة» (الكنيسة في عالم اليوم، ٧٨، ١). وعبارة أخرى، لا يُعطى السلام مرّة واحدة، بل يُبنى تدريجيًّا، ويتوقّف على الإرادة البشريّة وعلى خضوعها للشرعيّة الإلهيّة، فضلًا عن مختلف أوضاع التاريخ والجماعة البشريّة.

لا بل هناك أكثر من ذلك، فإنّ السلام ليس مطلبًا من نظام المجتمع البشريّ وعدائته. يرى المسيحيّ في السلام عطيّة من الله أو صورة منعكسة لملكوت الله. «لأنّ السلام الأرضيّ الذي يصدر عن محبّة القريب هو نفسه صورة عن سلام المسيح الذي يأتي من الله الآب ونتيجة له. فإنّ الابن المتجنّد نفسه، أمير السلام، قد صالح جميع البشر مع الله بصليبه، معيدًا وحدة جميع البشر في شعب واحد وجد واحد (...). فالمسيحيّون هم مدعوّون جميعًا بالحاح إلى الالتحاق بالنامس المسالمين حقًا لالتماس السلام وإحلاله» (الكنيسة في عالم اليوم، ٧٨، ٣-٤). ذلك بأنّ المسيح دخل تاريخ العالم، متخذًا وملخصًا إيّاه. وبكشفه لنا أنّ الله محبّة، يعلّمنا في الوقت نفسه أنّ شريعة الكمال البشريّ وبالتالي شريعة تحويل العالم هي وصيّة الحبّ الجديدة. والمسيح، بعمله هذا، يحمل إلينا اليقين بأنّ طريق المحبّة تفتح لجميع البشر، وبأنّ الجهد المبذول لإحلال أخوة شاملة ليس باطلًا. ويقوله أن يموت عن جميع البشر، لكي يتحدوا جميعًا في وحدة وسلام واحد، يعلّمنا أنّه يجب علينا أن نحمل صليبا واحدًا يجعله العالم على أكتاف الذين يعملون لإحلال العدالة والسلام. وهو

يبيب لنا الروح القدس نفسه الذي بدفنا إلى عيش أخوة الذين هم إخوة  
به .

## ٢ - الكتاب المقدس

- في العيد القديم، بشر السلام إلى كمال نجاح الحياة. إنه  
السعادة بصفته يستند أساسًا إلى الله. ولذلك كثيرًا ما يظهر بمظهر المعية  
المسيحية المثلى، هذا وأن الخير انمسيحي الجوهرية ينمكس في جميع  
أبعاد الوجود، وليس هو مجرد بُعد نفسي كالاعتف. وأخيرًا ليس السلام  
حقيقيًا، ما لم يكن عمل العدالة.

لكن استمرار السلام هو قبل كل شيء، في نظر النبي، عمل الله،  
لأن السلام هو حتمًا عطية الله التي يجب على الإنسان أن يشارك فيها،  
ولأن كلمة الله لا تمنح الإنسان ما يستطيع أن يحققه بقواه الشخصية (عدالة  
أو سلامًا بشريًا محضًا، على سبيل المثال)، بل تمنحه قوة تمر عن طريق  
الإيمان الحر بالإله الحي والاعتداء المطلق إلى دعوته، هذا شأن  
السلام<sup>(٥)</sup>.

- يندرج العيد الجديد، في آن واحد، في نتيج نبوءات العيد القديم  
المسيحية، ويأتي بجدة جذرية: إن يسوع المسيح هو ذلك الذي كانوا  
يتظرونه، والمحرر الذي بشر الأنبياء بمجيئه. لكنه أيضًا ذلك الذي  
عارض قطعًا المذهب السياسي المسيحي الذي شاركت فيه أكثرية أبناء  
وطنه الساحقة. ليس سلام المسيح وظيفة مريحة: «السلام أتودعكم  
وسلامي أعطيكم. لا أعطي أنا كما يعطي العالم...» (يو ١٤/٢٧).  
ليس سلام البشر سلام المسيح. فإن سلام البشر يعني علاقات البشر  
بعضهم ببعض في أحداث التاريخ: وهي عمل الإنسان. أما سلام المسيح  
فهو يندرج على صعيد علاقات البشر بالله، وهو قبل كل شيء عمل الله  
الذي تمّ ودلّ عليه بوجه خاص في يسوع المسيح، مع أن البشر مدعوون

cf. René COSTE, *L'Eglise et la paix*, Paris, Desclée, 1979, p. 50. (٥)

إلى أن يكونوا معاونيه. إنه موجه إلى مستقبل ملكوت الله، الذي يبدأ وجوده منذ هذه الدنيا، لكنَّ معناه الحقيقي موجه إلى الأخرية ولا يُدرك إلا بالإيمان، لأنَّه موجه إلى الخلاص. في الواقع، لا يتعارض السلامان، بالرغم من اختلاف الواحد عن الآخر. فالمؤمن يستمد في سلام الله الشجاعة وعودة إلى التناهي قد تلزم نشاطه في العمل من أجل السلام البشري، ولا سيما من أجل السلام السياسي. إنَّ السلام الإلهي يلتقي السلام البشري في العمق، وهو يستوعبه ويستبطنه ويدعم متطلباته، لكنه يتخطاه من كلِّ جبهة.

وهكذا تعبَّ الرصية الكتابية في أعمال دينامية سلام باستخدام جميع الوسائل الممكنة في وضع ملموس. وهذا ما يعني أنَّ الإنسان قد لا يستطيع حقًا أن يرفض جميع نَسَب القوَّة، وأنَّ عليه أن يبذل جينه ليرجع نَسبًا سلامية، لأنَّه لا يستطيع أن يعرِّز السلام عمليًا إلا في العدالة نسليًا.

### ثالثًا - الخاتمة: دور الكنائس

هل تستطيع الكنيسة أن تقوم بدور المحافظة على السلام؟ في الحقيقة، يبدو وزننا على الصعيد السياسي محدودًا جدًّا في أيامنا، وعلى مستوى كوكبنا. إذ إنَّ القرارات العليا المتعلقة بالحرب والسلام هي في أيدي عدد قليل من الناس يظهر أنهم لا يعتمدون إلا على نَسَب القوَّة، بحيث إنَّ نفوذ الكنيسة يبدو ضعيفًا، مع أنَّ ما يجب إعلانه بحسب روح الإنجيل هو الحقيقة، وما يجب تحقيقه هو خدمة القريب المتواضعة. هناك مسيحيون وجماعات مسيحية، أيًا كانت أنواع تقصيرهم وأخطائهم وحتى ذنوبهم في الماضي وفي جميع العصور، عملوا بشجاعة وفعالية من أجل تعزيز العدالة والسلام، أو كانوا شهداء محبة بطولية في أثناء الأعمال العدوانية وفي السجون وفي معسكرات الاعتقال. ولا يسعنا أيضًا أن نتجاهل العمل الجريء والمتواصل الذي قامت به البابوية المعاصرة، منذ حبرية لاون الثالث عشر، في سبيل السلام. ولا بد لنا أن نتذكَّر أيضًا الصدى البعيد الذي أحرزته الرسالة العامة للسلام في الأرض التي أصدرها

نريد أن نوضح في الختام كيف أن الكنيسة - أو الكنائس - يمكنها أن تشارك حقًا في السلام. نظرًا إلى ما هي وما هو عملها الخاص في العالم، الذي هو عمل روحي إنني حدّد بعيد. لقد عبّر أحد الأساقفة الألمان عن ذلك على الوجه التالي: «إنّ التبشير بالسلام، بجميع مستلزماته في حقلي السياسة والسلوكيات الاجتماعية، والصلاة من أجل السلام هما وجهتا إنسان الكنائس في إحلال السلام في العالم، وهي وحدها تستطيع أن تأتي بينما، ولا بديل لينا إذا في ذلك»<sup>(٦)</sup>. في عبارة «التبشير بالسلام» تلميح إلى وضع تاريخي خاص، إذ إنّ البطريرك أثيناغوراس كان يقول: «نحن، رجال الكنيسة، لا يُطلب إلينا أن نوجد وصفات سياسة جيّدة، بل يُطلب إلينا أن نذكر الميحيين بمسؤوليتهم. فإنّهم مسؤولون أمام الله عن جميع البشر». وبعبارة «الصلاة من أجل السلام» يجب أن نفهم أنّ كلّ ما يُصنع من أجل سلام العالم لا قيمة له من دون صلاة الكنيسة. بالصلاة يجب أن نطرد المقاومات الحقيقيّة. لا بدّ أن نصلي من أجل التميّز وإقامة الثقة والصبر إلخ. فإنّ الصلاة تتخذ، إذا صحّ القول، وظيفة تعزيبية في النضال من أجل السلام. إنّ قوّة الله هي أشدّ فعاليّة من قوّة السلاح، كما أنّ سلام الله يُليّم سلام البشر.

(ترجمة الأب صبحي حموي)